

طبع بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسين الثاني في قصره

المملكة المغربية

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

ترتيب المدارك وتفريب المسالك

لمعرفة أعلام مذهب مالك

تأليف

القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي

المتوفى سنة 544 هـ

الجزء الأول

تحقيق :

محمد بن وهب الطنجي

الطبعة الثانية

1403 هـ - 1983 م

تقديم

بسم الله الرحمان الرحيم

اولا عياض لما ذكر المغرب⁽¹⁾

هذه هي الكلمة التي اختارتها الأمة المغربية للتعبير عن مكانة عياض في تاريخها .

وهي خلاصة لما تركته حياته الحميدة الحافلة ، وعلمه الواسع ، وسلوكه الحميد - من آثار جميلة بعيدة النور في قلوب مواطنيه .

وذكره المؤرخون !

والمشاركة من أهل العلم والمغاربة ، سواء في اللّهُج بحمده ، والإشادة بماثره الخالدة .

وعياض ! في الشرق ، وفي الغرب ، وفي كل بلد من بلاد الاسلام ، حق أن يخلد ذكره ، وأن يُنشر فضله ؛ وحرى أن تتساند محافل العلم في كل بقاع الأرض المسامة على إجلاله وتقديره .

والقاضي عياض - حين يحدث ، وهو يعني لِم يحدث ، عن بعض شيوخه ، أنه كان يقول : « ما لكم تأخذون العلم عنا ، وتستفيدون

(1) كلمة شاعت على النسخة الجماهير في المغرب ، من غير أن تنسب لقائل معين .

منا ، ثم تذكرونا فلا تترحمون علينا ⁽²⁾ ، - يعتبر الاعتراف
بفضل العالم المفيد شكراً للعلم ، ودّيناً يجب على الخلف المستفيد أن
يؤديه ؛ وهو للسلف - قبل وبعد - لسان الصدق في الآخرين .
وقد قيل : « من ورّخ مؤمناً فكأنما أحياء » ⁽³⁾

وأراد الله أن يكون الخلف وفياً لعياض ؛ فقد اختصه بالتأليف قوم
وترجم له أقوام . ⁽⁴⁾

وليس من غرضنا - في هذه الكلمة - أن نستقصى دقائق تاريخ
القاضي عياض ، فإننا ، لو قصدنا إلى ذلك هنا ، لما وفينا به ؛ فحياته
- من أي جانب نظرت إليها - غنية عامرة وهذه جهة ، والحديث عنها ،
حديث - في الواقع - عن عصر من أدق عصور التاريخ في هذا البلد
وتلك جهة ثانية .

وانما هدفنا أن نسجل معالم عامة لحياته وخاصة ما يتصل بالجانب
الفكري منها ، بغية أن نقف على ما لعله أن يكون قد أثر في منهجه في
البحث والتأليف ، وخاصة في كتابه « ترتيب المدارك » الذي نقدم له
بهذه الكلمات .

(4) ذكرنا لائحة تتضمن مراجع لترجمة

القاضي عياض .

(2) ابن بشكوال ، الصلة 446 ، الغنية 128

(3) السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ 28 .

نسبه :

نقل ابنه محمد ، ⁽⁵⁾ وأبو القاسم ابن الملجوم ، ⁽⁶⁾ كلاهما عن القاضي عياض أنه :

« عِيَاضُ بْنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مُوسَى بْنِ عِيَاضِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى بْنِ عِيَاضِ الْيَحْصُبِيِّ » .

وهو نسب يرتفع - كما نرى - إلى يَحْصُبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدٍ ، ⁽⁷⁾ ويَحْصُبُ ، أخو ذِي أَصْبَحَ الْحَارِثِ بْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدٍ الَّذِي يَنْتَهِي إِلَيْهِ نَسَبُ الْإِمَامِ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ الْأَصْبَحِيِّ .

وهكذا يمت القاضي عياض إلى الإمام مالك بصلتين :

صلة المذهب المالكي الذي دان به سكان المغرب وما يزالون وكان عياض من أبرز أعلامه وأشهرهم .

وصلة القرْبَى والانتساب إلى قبيلة حَمِيرَ من عَرَبِ الْيَمَنِ ، ذات الصيت الذائع في التاريخ الاسلامي .

(7) وقع في ازهار الرياض 27/I :
« يحصب بن مدرك » ، وهو تصحيف .
ونسب يحصب في جمعة ابن حزم 408 -
409 ، ونهاية الارب للقلقشندي 249 ، 254 ؛
وانظر تاج العروس (حصب - صبح) .

(5) في كتابه السني عرف فيه بأبيه
صحيفة 3 - 4 ، وانظر ازهار الرياض
23/I - 25 .
(6) ازهار الرياض 24/I .

ومن المحتمل ، ولا نذهب إلى أكثر من الاحتمال ، أن يكون لصلة القُرْبَى هذه - فوق ما للأسباب التي بسطها القاضي في مقدمة « ترتيب المدارك »⁽⁸⁾ ، ، وفوق ما لصلة المذهب - أثرُها في توجيه القاضي عياض إلى العناية البالغة بحياة الامام ، وابرازها في إطار من الجلال والبهاء ، وفي إصراره على أن يُبعد عنها كلُّ ما من شأنه أن يشوب نصوعها ، ويخدش في بهائها .

موطن سلفه :

وكان منزل أجداده بجهة بَسْطَة⁽⁹⁾ (Baza) التي تبعد 123 كيلومتراً نحو الشمال الشرقي من مدينة غرناطة ، ومنها انتقلوا إلى فاس ، ثم إلى مدينة سَبْتَة .

وذكر ابنه محمد أن سلفه قد استقر بالقيروان ، غير أنه لم يدر هل كان استقرارهم بها قبل نزولهم بالأندلس أو بعده⁽¹⁰⁾ .

ولم نعرف ، في عداد أهل العلم ، أحداً من أجداده ، غير أن بيتهم كان من البيوتات النابهة بفاس وبسبته ، وأن جدَّهم عمرو الذي انتقل من فاس إلى سبتة حوالي سنة 373 هـ ، كان من أهل الخير ، حافظاً للقرآن ، حج

(8) 4/I ، 6 - 22

نزلوا بقلعة يحصب al-cala la Real على بعد ست مراحل في الشمال الغربي من مدينة غرناطة وأن هذه القلعة سميت بهم ، واليها ينسب القاضي عياض .

(9) التعريف 4 ، المعجم لابن الأبار 294 الوفيات 497/I ، الديباج 168 ، تاريخ الفكر الأندلسي 293 ، 397 .

(10) التعريف 4 - 5 ، وانظر الديباج 168

وفي تاج العروس (حصب) أن الپحصيين

إحدى عشرة مرة ، وغزا مع المنصور ابن أبي عامر كثيراً من الغزوات ،
وأنه اشترى أرضاً بسبته من ماله جعل جزءاً منها وقفاً على المسلمين يدفنون
فيه موتاهم ، وجزءاً بنى فيه مسجداً ، ودياراً جعلها حبساً على المسجد ، وأنه
لازم هذا المنجد للتعبد إلى أن مات سنة 387 هـ ⁽¹¹⁾ .

وهي خلال كلها تمكن لباهة الذكر ورفعة المكانة .

مولده :

وسبته - حسبما كتب القاضي بخره ⁽¹²⁾ ، وعنه نقل ابنه محمد - ولد
القاضي عياض ، في مُتَصَف شعبان من سنة 478 هـ ⁽¹³⁾ .

وسبته قاعدة من قواعد المغرب ، هاها موقعها الجغرافي لأن تكون
ملتقى العلماء ، سواء الواردون عليها من المشرق والمغرب ، بقصد العبور إلى
الأندلس ، أم القادمون إليها من الأندلس إلى المغرب ، بقصد الرحلة أو
الإقامة ، وأن تصبح - نتيجة لذلك - ملتقى لثقافات متنوعة متعددة .
وهكذا أنشأ العلماء المقيمون بسبته ، والوافدون إليها ، مركزاً ثقافياً بها ،
له أهميته ، وله ميزاته وخصائصه .

والتفت مصادر ترجمة عياض على وصفه بالذكاء ، والفهم ، والحنق ،

(13) بغية الملتبس 423 ، المعجم 294

الصلة 447 ، الوقفيات I/497 ، الاحاطة

I82 - ب .

(II) التعريف 5 ، وعنه ابن الخطيب في

الاحاطة I82 . 1 ، والمقرى في ازهار الرياض

(I2) الصلة 447 ، المعجم لابن الأبار 296 .

والفطنة ، والتَّيَقُّظ ، والحرص على طلب العلم .

وهي مؤهلات ، من شأنها أن ترفع صاحبها إلى مراتب عالية في العلم والفضل .

وبهذه المواهب العقلية الممتازة ، وفي ذلك الجو العلمي الذي تهيأ له بمسقط رأسه سبته ، بدأ عياض طلبه للعلم .

وإذا كانت الكتب التي يدرسها طالب العلم ، تتدخل - مثلما يؤثر الشيوخ - في تكوين شخصيته ، فإن ما قرأه عياض الطالب ، وقد جاءه الله تلك المواهب العقلية ، من أمهات الكتب على اختلاف موضوعاتها ، في بلده سبته ، دال على أن شخصيته العلمية قد اكتملت قبل أن يغادر بلده ، وأنه قد انتزع شهرته الخالدة على الزمن بسميه ، دون أن يحاييه بها أحد .

ففي بلده حفظ القرآن بقراآته السبع ؛ برواية نافع ، وابن كثير ، وأبي عمرو بن العلاء ، وابن عامر ، أخذ هذه الروايات بطرقها المختلفة المعروفة - عن عبد الله بن إدريس بن سهل المقرئ (المتوفي سنة 515 هـ) ، (14) وبرواية حمزة بن حبيب الزيات ، عن عبد الله بن محمد النفري (المتوفي سنة 538 هـ) (15) .

وقرأ اللغة العربية ، متبهاً وأدبها ، في كتاب الفصح لأبي العباس ثعلب ، وكتاب الأملى لأبي علي القالي ، والكامل لأبي العباس محمد بن

(15) الغنية 148 ، وانظر 43 . 44 .

(14) الغنية 149 ، وانظر 173 .

يزيد المبرد ، وأدب الكتاب لأبي محمد ابن قُتَيْبَةَ (16) .

ودرس قواعدَها في كتاب الجُمْلَ للزَّجَّاجي ، والواضح لأبي بكر
الزُّبَيْري ، والكافي لابن النَّحَّاس ، والمقتَضَب للمبرد ، والإيضاح لأبي
على الفارسي ، (17) وشرح الجُمْلَ لابن فَضَّال (18) .

أما أصول الفقه ، وأصول الدين وعلم الكلام (19) على مذهب أبي الحسن
الأشعري ، والجدل والمناظرة ، (20) فقرأ أصول الدين على قاضي سبته عبد
الله بن محمد بن ابراهيم بن قاسم اللخمي (المتوفى سنة 458 هـ) ، (21) وقرأ
رسالة ابن أبي زيد القيرواني (22) على محمد بن عيسى التيمي ؛ وصحب عبد
الغالب بن يوسف السالمي (المتوفى سنة 516 هـ) المتكلم على مذهب أهل
السنة من الأشعرية ، مدة إقامته بسبته ، وناوله كثيراً من مجموعاتهِ (23) ،
وقرأ على يوسف بن موسى الكلبي، المتكلم على مذهب الأشعرية، أرجوزته

والرد على المخالفين لهم فيها .
فالمحاجة والمناظرة جزء من مفهوم علم
الكلام .

(20) أما « علم الجدل والمناظرة » ،
فيراد به الجدل في مسائل الفقه تارة ، وفي
مسائل الاعتقاد تارة أخرى ، ومهما كان
فهر صناعة الجدل .

(21) الغنية 146 .

(22) الغنية 22 .

(23) الغنية 166 .

(15) الغنية 134 - 135 ، وانظر 43 ، 67 .

(17) الغنية 135 .

(18) الغنية 160 .

(19) جاء في « التعريف » صحيفة 6 أن
القاضي عياضاً كان متكلماً أصولياً ، وكان
لا يرى الكلام في ذلك إلا عند نازلة . وعلم
الكلام ، منذ نشأته ، يعني الحجاج عن
العقيدة والمناظرة عليهما ، ثم اشتهر - بين
أهل السنة - استعماله في معنى الحجاج عن
العقيدة السنية بالأدلة البرهانية العقلية ،

التي ألفها في الاعتقادات ، ⁽²⁴⁾ كما قرأ كتاب المنهاج في الجدل والمناظرة
لأبي الوليد الباجي ⁽²⁵⁾ .

واحتجاج عياض المتكرر في كتاب الشفا بآراء أبي الحسن الأشعري ، ⁽²⁶⁾
 والقاضي أبي بكر الباقلاني ، ⁽²⁷⁾ وأبي بكر ابن فورك ، ⁽²⁸⁾ وأبي المعالي

إمام الحرمين الجويني ، ⁽²⁹⁾ ثبت كل ذلك صلته الوثيقة بمذهب الأشعرية
وبكتبهم ، وقراءته لمؤلفاتهم في الاعتقاد ، ⁽³⁰⁾ ووصفه للباقلاني ، وأبي
بكر ابن فورك بقوله : « من أئمتنا ⁽³¹⁾ » ، دال على أنه أشعري المذهب .
ومناقشاته العميقة لآراء المعتزلة ، ⁽³²⁾ والفرق الاعتقادية الإسلامية ، على
اختلاف مذاهبها ، ⁽³³⁾ والفلاسفة ، ⁽³⁴⁾ والصوفية ، ⁽³⁵⁾ والخواارج ⁽³⁶⁾ - تطلع
الدارس لعياض على معرفته الواسعة بالمذاهب الاعتقادية وآراء أصحابها .

وصلة القاضي عياض بعلم الكلام وما يتبعه من جدل ومناظرة ، ومعرفته
بدقائق آراء المخالفين لأهل السنة فيه ، تصل بنا إلى أن المدرسة التي أخرجت
القاضي عياضاً وشيوخه الذين تعلم عليهم الكلام وأصول الدين ، وكثير

(24) الغنية 215 .

(25) الغنية 160 .

(26) الشفا 2/277 .

(27) الشفا 1/215 ، 2/263 ، 267 ، 276 .

(28) الشفا 1/216 ، 2/156 .

(29) الشفا 1/205 ، 311 ، 2/264 .

(30) الغنية 166 ، 215 .

(31) الشفا 1/216 .

(32) الشفا 2/266 ، 267 ، 278 ، 279 .

(33) الشفا 2/268 ، 269 .

(34) الشفا 2/269 .

(35) الشفا 2/269 .

(36) الشفا 2/271 .

من العلماء المغاربة الذين اشتغلوا بعلم الكلام واشتهروا به ، وترجم لهم في « ترتيب المدارك » .

نقول : هذه المدرسة كانت على علم تام بالجدل والمناظرة وأصول الدين والكلام على مذهب أبي الحسن الأشعري ، وأن كتب الأشاعرة في علم الكلام كانت معروفة بين رجالها يتدارسونها في كافة أنحاء المغرب .

ومن هنا نصل إلى عدم صحة ما حيك حول مهدي الموحدين ، من أن اعلما المغرب في عهد المرابطين ، لم تكن لهم معرفة بالجدل والنظر ، وأنهم - لذلك لم يستطيعوا أن يثبتوا له في مناظراته ، وأن التجسيم كان غالبا عليهم في الاعتقاد ، فجاء ابن تومرت بعقيدة التوحيد ، ونشرها ، وسمى أتباعه لموحدين ، الى آخر ما قيل وكرر⁽³⁷⁾ .

إنه خدعة سياسة أذاعها ابن تومرت وأنصاره لتوطيد نفوذهم في نفوس الجماهير ، واغتربها المؤرخون ، ومن العجيب أن يكون ابن خلدون الواعي من ضحاياها . وبسببها أيضا عن أعلامها ومحدثيها أخذ علم الحديث ، متنه وغريبه ورجاله ومصطلحه .

فقرأ الموطأ للإمام مالك ، ومسند الموطأ لأبي القاسم الجوهري ، وصحيح البخاري بروايتي الفريزي والنسفي ، وصحيح مسلم ، وسنن النسائي ، وشرح غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ، واصلاح الغلط على

(37) ابن خلدون ، العبر 6/226 - 6/229 ، 6/266 .

أبي عبيد لا^١ بن محمد ابن قُتَيْبَة ، وغريب الحديث لا^٢ بن سليمان الخطابي ،
وعلم الحديث للحاكم ، وكتاب الطبقات لمسلم الحجاج صاحب الصحيح ،
وكتاب الضعفاء والمتروكين للنسائي ، وكتاب الطبقات له ، وكتاب
التقصي لابن عبد البر ،⁽³⁸⁾ والمؤتلف والمختلف للدارقطني ،⁽³⁹⁾ والمؤتلف
في تكملة المؤتلف والمختلف للخطيب البغدادي ،⁽⁴⁰⁾ ومشكل الحديث لابن
فورك ،⁽⁴¹⁾ والاكمال لابن ماكولا⁽⁴²⁾ .

أما الفقه المالكي ، فدرس رسالة ابن أبي زيد ،⁽⁴³⁾ والمدونة ،⁽⁴⁴⁾
وتأليفاً في الأيمان اللازمة للقاضي أبي بكر ابن العربي المعافري ، قرأه
عليه بسبته عند مروره بها .⁽⁴⁵⁾

وقرأ أصول الفقه على محمد بن داود بن عطية القلعي .

رحلته

بهذا المحصول العلمي الرائع رحل عياض الى الاندلس .
وقد عنى مؤرخوه بتحديد مبدأ رحلته ومدتها ،⁽⁴⁶⁾ وهي عناية محمودة
لها فوائدها ، ولا كن مبدأ الرحلة ومدتها لا يهمنا ولا يفيدنا الفائدة التي

(44) الغنية 22 .

(38) الغنية 2 - 22 ، 146 ، 190 ، 191 .

(39) الغنية 51 - 56 .

(45) الغنية 19 ، 119 ، 146 ، 40 - 42 .

(40) الغنية 51 - 56 ، 64 .

(46) في التعريف 9 - 10 وإزهار الرياض

(41) الغنية 135 .

8/3 - 10 : أنه خرج من سبته سنة 507 هـ .

(42) الغنية 56 .

وعاد من رحلته سنة 508 هـ .

(43) الغنية 56 .

تعود علينا من معرفة ما فعله القاضي في رحلته ، وما خلفته هذه الرحلة من آثار في معلوماته وفي تفكيره .

والرحلة في طلب العلم ، تعنى - في ميدان التربية العلمية وتقويم أسس التفكير في الإسلام - أمرين :

الأول :

التأكد من سلامة المنهج النقلى ومن كماله ، ويتطلب ذلك تصحيح المتون المروية ، والبحث عن أصولها ، ووصل أسانيدها بأصحابها ، والبحث عن أعلى هذه الأسانيد وأقوامها وأصحابها .

فهذه المادة المروية ، إذا لم تثبت بصورة صحيحة نسبتها إلى أصحابها ، لاتصلح أن تتخذ أساسا للبحث والدرس وبناء أحكام عليها ، سواء كانت هذه الأحكام دينية أو علمية أو أدبية .

والحرص على إكمال المنهج النقلى وسلامته ، واضح في عناية القاضي البالغة بالتوسع في الرواية والقراءة ، فنراه يقرأ كتباً جديدة لم يقرأها بلده ،⁽⁴⁷⁾ وبمقابلة كتبه⁽⁴⁸⁾ بالأصول الصحيحة ، والبحث عن أصول العلماء الخطية المسندة،⁽⁴⁹⁾ والتنصيص على الأصح والأفضل من رواياتها إلى أصحابها ، إن تعددت الطرق والروايات ،⁽⁵⁰⁾ وبالنص - كذلك - على أنه قابل أو صحح .

والأمر الثاني :

(49) الغنية II .

(50) الغنية I، 142 ، I55 .

(47) الغنية I، 142 ، I55 .

(48) الغنية I، 26 ، 27 ، I72 .

تصحيح منهج التفكير ، وإقامة أسسه على قواعد ثابتة . وتقول مصادر ترجمته : إنه عُنِيَ في رحلته بقاء الشيوخ ، ⁽⁵¹⁾ ولم يكن غرض عياض الأساسي من رحلته أن يرى وجوه الشيوخ ، وإنما كان يعنى - بعد أن سَلِمَ له المنهج النقلى - أن يقابل أفكارهم ؛ فيزنها بما تعلّمه في بلده من أفكار .

وقديما قيل : « إذا أردت أن تعرف مقدار شيخك فجالس غيره » . ولقاء الشيوخ هو الذي أتاح لعياض أن يرُصد عن كُتُبِ مناهجهم في التفكير ، ويرقُبَ كيف يتناولون المسائل بالدرس والبحث ، يردّون منها ما يردون ، ويقبلون ما يقبلون ، فينقله ما شاهد وما فهِم إلى ما تعلّمه عن علماء بلده من أسس ومناهج ، يقارن بينها ويُفاضل ، فيُبقَى في ذهنه - بعد الموازنة والعرض على ميزان النقد - ما يصلح أن يبقى ، ويُنفى ما لا يثبت للنقد .

وبعملية الاختبار والمفاضلة . والتنقيح والتلقيح هذه ، تمّ له بناءُ الجهاز النقدي ، وتكاملت له أصول التفكير على أساس من المقارنة والاختيار .

شهادة أهل العلم له

وعرف مكانه عند أسيّاخه أثناء رحلته وقبل أن يعود إلى وطنه ، وقد أثرت عنهم كلماتٌ تشير إلى فراستهم فيه ، وتقديرهم له ، واعترافهم بفضله

(51) الصلّة 446 ، الوفيات 1/497 .

وعلمه .

قال له أستاذه أبو عبد الله ابن حمد بن ، وقت رحلته : « وَحَقِّي يَا أَبَا
الْفَضْلِ إِنْ كُنْتَ تَرَكْتَ بِالْمَغْرِبِ مِثْلَكَ ⁽⁵²⁾ » .

وأراد الرحلة إلى بعض الأئمة نداءً ندلس للأخذ عنه ، فقال له الوزير
أبو الحسين ابن سراج : « لَهُوَ أَحْوَجُ إِلَيْكَ مِنْكَ إِلَيْهِ ⁽⁵³⁾ » .
وقال أبو محمد ابن أبي جعفر : « مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنَ الْمَغْرِبِ أَنْبَلُ
مِنْ عِيَاضٍ ⁽⁵⁴⁾ » .

واقفه بسببة الوزير الكاتب الشاعر عبد المجيد ابن عبدون (المتوفى سنة
527 هـ) ، فأقسم له أنه ما قصد سببة إلا للقياء ⁽⁵⁵⁾ .

وفي رحلته كتب عنه أبو عامر محمد بن أحمد بن إسماعيل الطليطلي أشياء
من حديثه ⁽⁵⁶⁾ .

وعاد عياض من رحلته ، قبساً من النور يضيء ، وممينا عذبا فياضاً
من العلم لا يلحقه النضوب ، وصوتاً عالياً للحق ينادي -- مُرْشِداً ، وَحَاكِماً --
فِي سَمْعِ الْوَدَاءِ ، وَطَاقَةً هَائِلَةً مِنَ الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ وَالْخُلُقِ .

وإلى هذا جميعاً إحساسٌ واع بنفسه وببلده ، ⁽⁵⁷⁾ وبالمكانة التي تهيأت

بأخبار سببة ، وتأليفه كتاب « العيون
المتة » . والعناية بتاريخ المدن المغربية
قديم ؛ فقد ألف محمد بن يوسف التاريخي
الوراق أخبار تاهرت ، والبصرة ، وسجلنامه
ونكور ، وغيرها .

(52 ، 53 ، 54) التعريف صحيفة 121 .

(55) الغنية 167 .

(56) الغنية 59 .

(57) من مظاهر هذا الاحساس عنايته

له ، بما ورثه عن سلفه ، وبما أفاده بسعيه ، وتقدير للمسؤوليات الثقيلة التي تفرضها عليه تقاليد هذه المكانة ، من إرشاد وهداية ، وتوجيه وتنوير ، وحماية إن كانت السلامة في الكرامة الإنسانية وفي المقدّسات لا تحفظ إلا بالحماية .

وقفت له بلادُه قلبها ، فأجّته وأكبرنه ، وأسندت إليه قيادها ، فكان عياض في جميع ذلك الرائد الأمين الذي لا يَكْذِبُ أهله .

حدّث ابنه في « التعريف » ، وابن صعد في « النجم الثاقب » ، وعنه الإفرائي في « دُرر الحجال في سبعة رجال » في السمط الثاني منه : أن القاضي عياضاً لما ولى قضاء بلده كانت الخاصة والعامة على غاية من محبته وإجلاله وإكباره ، وكان له من الهيبة والجلالة عند الأمراء والولاة ، ما جعلهم يقبلون قوله ، حين يطالبهم بأداء حقٍّ من حقوق الرعية ، ويتنافسون في قضاء حقه والقيام بواجبه .

وحدثوا عن سيرة القاضي في قومه ، فقالوا : انه كان صلباً في الحق لا تأخذه فيه لومة لائم ، مجباً في طلبه العلم محرضاً لهم على طلبه ، (58) كثير التواضع ، يقبل على المساكين والفقراء ، فيسألهم عن أحوالهم ويكثر الصدقة عليهم ، (59) ويعاشر الناس بالأخلاق الحسنة ، والجانب اللين ، ويؤثرهم بما

(58، 59) التعريف 7 .

يجد؛ أنفق في ذلك أكثر ما ورثه عن أبيه ، وباع فيه رباعه بسبته وأملأ كفه ، ومات مديناً بخمسمائة دينار (60) .

أما صلة القاضي عياض بربه في عبادته ، فكان متين الدين ، مجتهداً ، كثير الصوم ، قوام الليل ، تالياً لجزء من كتاب الله — عز وجل — في الجزء الأخير من الليل ، لم يتركه — ما قدر على تلاوته — في أية حالة ، ملتزماً لحدود الشريعة ، سنياً في عقيدته شديد التمسك بها إلى حد التعصب (61)

ولم يصرفه واجبه الديني والاجتماعي عن الواجب العلمي المقدس ؛ فكان دائماً الصلة بعلمه ، لا يفارق كتبه ، يقرأ ، ويدرس ، ويبحث ويؤلف .



وتطورت الأحداث ، وأرغمته على أن يخوض غمارها ، وكانت هناك مقررات سنية عقديّة لا سبيل إلى التخلي عنها ، آمن بها أهل هذا المغرب ، ومنهم علماء الذين جاهدوا في سبيل المحافظة عليها بكل ما كان لديهم من الوسائل .

والعقيدة السنّية تجيء في طليعة هذه المقررات ، وهي تقرّر — فيما تقرّر — أن لا عصّة لأحد من الناس غير الأنبياء .

(60) التعريف 128 .

(61) شذرات الذهب 4/ 139 .

أضف إلى قضية العصمة، ما كانت تستلزمه من مظاهر التشيع .
وهناك الموقف الحذر أو العدائي الذي اتفق عليه أعلام المغرب ،
أو كادوا ، تجاه مباحث واتجاهات في كتاب « إحياء العلوم » للغزالي .
ويمكن حصر هذه المباحث التي رفضتها الأوساط الفكرية في المغرب
في نقطتين :

الأولى : ذلك الموقف السلبي الخطير الذي يقفه الغزالي في كتاب
الإحياء وغيره — من الاشتغال بالعلوم الإسلامية ، باستثناء التصوف .
والثانية : ما عرض للبحث فيه من « علوم المكاشفة » ، وما بناه عليه من
نتائج وأحكام .

وآمن عياض بما آمن به ، أهل السنة في المغرب ، وكان شديد التمسك
بما آمن به ، وقرأ على محمد بن عبد العزيز التغلبي (المتوفى سنة 508 هـ) ردوده
على الغزالي ⁽⁶²⁾ وأغاب الظن — ولا شيء يمنع من — أنه كان على علم
بموقف المازري شيخه من كتاب « إحياء العلوم » للغزالي .

فكان عياض — من هذا جميعه — رأيه في كتب الغزالي وآرائه ،
مماثلا لما رآه شيوخه ومُعاصروه فيها ؛ كان عياض يرى أن الغزالي لو
اختصر الإحياء واقتصر فيه على العلم الخالص ، وهذه عبارته ، لكان كتابا
مفيدا ⁽⁶³⁾ وغير الخالص من العلم في كتاب الإحياء — فيما يعني عياض —

(62) الغنية 25 .

(63) التعريف 121 .

هو « علم المكاشفة » .

وحكى ابن العِمد الحنبلى ، ⁽⁶⁴⁾ والشَّعراني ⁽⁶⁵⁾ أن عياضاً كان يرى أن كتاب الإحياء يجب أن يُحرق ، وليس غريباً ما حكياء عنه ؛ فلعياض في كتاب الشفا ⁽⁶⁶⁾ حكم على أبى حامد الغزالي — رحمهما الله — في غاية القسوة .

وكان لعياض كذلك اعتقاده في العصمة التي وصف المهدي بها نفسه . وجاء مهديّ الموحدين فصدّم أهل المغرب في أقدس ما لديهم وهى عقيدتهم السنية ، وسماهم مجسّمين كافرين ، وقتلهم قتال كفر ، وحصر التوحيد في أصحابه وأتباعه ⁽⁶⁷⁾ .

وأقام حرّكته على دعامين :

عصمة الامام ، وهو كان الإمام .

وعلمه بالمغيبات ، وقد استفاده من كتاب الجفر الذي يتضمّن علوم أهل البيت . وعصمة الإمام ، عند الامامية ، وعنهم ينقل ابن تومرت : تعنى أن الامام لا يجوز أن تصدر عنه معصية صغيرة ، ولا يجوز أن يحصل منه سهو في الدين ، ولا يجوز أن ينسى شيئاً من الاحكام ⁽⁶⁸⁾ . ومن كرامة الامام عندهم أن يعرف ضمائر الناس وأن يعرف ما يكون

(67) ابن خلدون ، العبر 6/226 ، 227 ،

228 ، 229 ، 6/266 ، وابن زيدان ، اعلام الناس 87/1 ، 88 .

(68) أوائل المقالات 36 .

(64) الشذرات 4/139 .

(65) طبقات الشعراني 15/1 .

(66) 267/2 .

قبل كونه (69) .

وموقف العقيدة السنية من عصمة الائمة أنها لا تقبل عصمة أحد من الناس غير الانبياء ، كما أنها ترفض وصف الائمة بأنهم يعملون الغيب وما تكنه ضمائر الناس ، ويخفيه الغد .

وتعرضُ الغزالي لعلوم المكاشفة ، وإفاضته فيها ، واعتماده عليها — (70) من الاسباب التي حدت بالعلماء في المغرب أن يقفوا من كتاب « الاحياء » موقفهم العدائي المعروف ، ومن أجل هذا أيضا كان موقف عياض ورأيه ، الذي رأى ، في الغزالي وفي كتبه .

ومن السهل — بعد هذا الذي أشرتُ اليه — أن يفهم الدارس لماذا قاوم المغاربة في كل مكان دعوة الموحدين ، ثم لماذا ثارت سبته وكررت العصيان ، بزعامة عياض في وجه نظام الموحدين .

والموضوع لا يسمح لي بتفصيل القول في هذا هنا ، ولا كني أريد أن أقول : إن عياضا لم يتنازل قط عن عقيدته السنية ، وما كان الظنُّ به أن يفعل ، وإنَّ الموحدين لم يسامحوه قط ، ولذلك غربوه عن بلده ، فجزع — رحمه الله — لفراقها ، وكان يقول لمواطنيه عند وداعهم بسبته : « جعلني الله فداءكم » ويبكى ، (71) ونعصوا عليه أواخر حياته ، إلى أن لقي ربه

(69) أوائل المقالات 37 .

(70) فصلنا القول عن هذا في مقدمتنا لشفاء السائل لابن خلدون .

(71) التعريف 131 .

في سابع جمادى الآخرة ، أو في رمضان من سنة 44 هـ .

وانطلقت في الفضاء بعده الرؤي والمنامات والقصص والحكايات؛ له، وعليه .

وما أكثر ما تُحكّ الأَقاصيص حول النابيين من الناس بعد أن يفارقوا

هذه الحياة الدنيا !

وما أسهل أن يقول فيها القائلون: إنها خرافات لا تشبث للنقد ويُبعدوها

عن مادة التاريخ !

وهو صنيعٌ خاطيء تسخر منه الخبرة بنفسيات الشعوب والأمم .

إن هذه الجنود المجنّدة من الحكايات ، وهو التعبير الذي اختاره لها

أسلافنا ، هي الأسلوب ذو المنطق الخاص الذي يبعد الزمان والمكان، وكثيراً

من مُقررات وقواعد الأحاديث الرسمية من حسابه ، وهو الطريقة التي تختارها

الشعوب للتعبير عن إحساسها نحو من تريد أن لا تنسأهم من الناس ، وتسجيل

رأيها فيهم .

ففي رؤاها وأحلامها وأقاصيصها وأسجاعها وأمثالها ، وفقرها القصيرة

التي تشبه الأمثال ، وتطير كالسهم — في هذه الصور جميعاً تصوغ أفكارها،

وتسكب حبّها أو كراهيتها لأولئك الذين تستودعهم التراب .

ولأمر ما قالوا : « لسانُ الخلق أقلام الحق » .

والذي دفنوا عياضاً - رحمه الله - ففتان من الناس: حُكّام الموحّدين

وسادتهم ، وأمة المغرب ، وشعور الفئتين نحوه مختلف متباعد .

أما الموحّدون فحكّت أقاصيصهم أن الغزالي بَلّغَه رأيُ عياض في كتبه ،

فدعا عليه ، فمات فجأة في الحمام يوم الدُّعاء عليه (72) .

وقالت أيضا : إن المهدي هو الذي أمر بقتله بعد أن ادّعى عليه أهل بلده بأنه يهودي ، لأنه كان لا يخرج يوم السبت ... فقتله المهدي لأجل دعوة الغزالي (73) .

وأما الائمة المغربية ، فكانت أصابعها تشير إلى الموحدين تتهمهم وتقول : « سُم ابن العربي ، وخُنق اليحصبي (74) . وتقول ، وهي تعدّه ، بقولها هذا، في الشهداء : « سمه يهودي » (75) .

ورؤاها المتعلّقة بعياض ، والتي تربطها ببلده حيث نشأ ودرج وأفاد وأرشد ، وبالجزيرة الخضراء حيث أزال عن أهلها مظالم بعض حكامها، (76) ومراكش حيث قدّم نفسه فداءً لمواطنيه ، — هذه الرؤى (77) كانت تشير جميعا إلى أنه في الجنة منعمًا مكرّمًا ، جزاء لما قدمه من أعمال الخير يوم كان حيًّا ينسَى ، وأجابت أمته عن كلّ ما من شأنه أن يمس ذكراه العاطرة بكلمتها التي رددتها الشفاء أعواما تتلوها أعوام : لو لاعياض لما ذكر المغرب .

(75) الديباج 172 ،

(72) طبقات الشعرائي 15/1 .

(76) التعريف 131 .

(73) فهرس الفهارس 185/2 ،

(77) التعريف 129 - 131 .

(74) المرقبة العليا 95 .

تأليفه:

وعباض ، الى هذه الحياة الحافلة ، مؤلف مجيد مكثرت أثني العلماء على مؤلفاته ، واستفادوا منها ، وعنوانها .

وقد بلغت المؤلفات المنسوبة اليه الثلاثين أو تزيد ، والذي وصل اليها منها قليل ، وقد حرصنا على احصائها وذكر أسمائها جميعا — مرتبة على حروف المعجم — رجاء أن يفيد ذكرها في الحصول على مالم يعرف وجوده منها .

وهي :

1 - الاجوبة المحبرة عن المسائل المنخيرة .

وهو من الكتب التي لم يكملها القاضي عياض ، وذكر ابنه في التعريف 133 — 134 : أنه وجد منه يسيرا فضمه الى ما وجدته في بطائق أبيه ، أو عند أمحابه ، من معان شاذة في انواع شتى سئل عنها — رحمة الله عليه — فأجاب عنها .

جمع ذلك كله في جزء ، وقد ذكره أيضا في الاحاطة 183 - 1 ، وأزهار الرياض 2 : 289 خ (المخطوط) ، وكشف الظنون 1 : 11 .

2 - أجوبته فيما نزل في أيام قضاائه من نوازل الاحكام .

لم يكمله أيضا ، واختلفت المراجع في تقدير ماترك منه ، ففي الاحاطة 183 - 1 ، والتعريف 134 أنه جزء ، وفي أزهار الرياض 2 : 239 خ أنه جزآن .

3 - أجوبة القرطبيين . قال ابنه : رأيت هذه الترجمة بخطه ، ولم أجدها عند مبيضة .

غير أني وجدتھا في بطائق فجمعتهھا مع اجوبة غيرهم .

ذكره في التعريف 134 ، الاحاطة 183 - 1 ، أزهار الرياض 2 : 239 خ .

4 - أخبار القرطبيين ، ذكره في كشف الظنون 1 : 28 ، وفي هدية العارفين 1 : 805 ، وتاريخ

الفكر الاندلسي 288 وقال : وله تاريخ لعلماء قرطبة يسمى أخبار القرطبيين .

وأخشى أن يكون « أجوبة القرطبيين » السابق ذكره .

5 - اختصار شرف المصطفى ، « وشرف المصطفى » اسم كتاب لابي سعد عبد الملك بن محمد الواعظ النيسابوري الخركوشي المتوفى سنة 406 هـ ، وهو ثمان مجلدات ، ويسمى ايضا « شرف النبوة » .

وقد اختصره القاضي مياض ، حدث به عنه ابن خير إجازة ومشافهة واذنا ، وذكره في فهرست ما رواه عن شيوخه 289 ، 497 ، وذكره ايضا صاحب كشف الظنون ، 2 : 1045 . وكان القاضي كان يمهد لتأليف كتابه الشفا ، فاستطال كتاب شرف المصطفى ، فلخصه ليسهل رجوعه اليه ، واستفادته منه .

6 - الاعلام بحدود قواعد الاسلام ذكره ابنه في التعريف 133 ، والاحاطة 183 . وكشف الظنون 1 : 127 ، وهدية العارفين 1 : 805 . وقد طبعته وزارة الشؤون الاسلامية في سلسلة مطبوعاتها .

7 إكمال المعلم بفوائد مسلم ، وهو شرح على صحيح الامام مسلم بن الحجاج ، كمل به شرح أبي عبد الله محمد بن علي المازري المسمى بالمعلم بفوائد مسلم .

ذكره القاضي عياض في أول مشارق الانوار 1 : 7 ، وابن خير في فهرست ما رواه عن شيوخه 196 ، 494 ، ورواه عن مؤلفه ، وابنه في التعريف 132 ، والاحاطة 183 . 1 ، وقدره كانه بتسعة وعشرين جزءا . وذكره في كشف الظنون ، 1 : 145 ، 1 : 557 ، والوفيات 1 : 496 ، وهدية العارفين 1 : 805 . وهو موجود بالخرانة العامة .

8 - الاعلام في ضبط الرواية وتقييد المصنف . ذكره ابنه في التعريف 133 ، والضبي في بغية الملتبس 428 ، والاحاطة 183 . 1 ، كشف الظنون 1 : 158 ، هدية العارفين 1 : 805 ، تاريخ الفكر الاندلسي 397 .

وهو من المكتبة التي كثر اعتماد المتكلمين في مصطلح الحديث عليه ، وقد

وصلنا؛ ففي كل من مكتبة الاسكوريال ، وأيا صوفيا نسخة منه .

9 - بغيره الرائد لما تضمنه حديث امر زرع من الفوائد ، وهو أوفى شروح هذا الحديث ، وأغزرها مادة . ذكره ابنه في التعريف 133 ، والذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 ، وابن خبير في فهرست ما رواه عن شيوخه ، و رواه عن مؤلفه 197 ، 478 ، وابن خلكان 1 : 496 ، كشف الظنون 1 : 248 ، هدية العارفين 1 : 805 ، وفي الخزنة العامة ، وبرلين نسخ منه . طبر

10 - تاريخ المرابطين ، انتهى فيه الى سنة 540 هـ . ذكره ابن خاتمة في « مزية المربة » . ازهار الرياض 2 : 239 خ ، وانظر :

الجامع في التاريخ .

11 - ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك - يأتي الحديث عنه .

12 - التنبهات المستبطنة ، على الكتب المدونة والمختلطة . قدره ابنه ، وعنه الاحاطة

بعشرة أجزاء .

وكان عليه المعول في حل ألفاظ المدونة وحل مشكلاتها ، وتحرير رواياتها ، وتسمية رواياتها ، ويرجع السبب في ذلك إلى انه جمع بين شرح المعاني وإيضاحها ، وضبط الألفاظ ، وذكر من رواها من الشيوخ والحفاظ . ذكره ابنه في التعريف 132 والوفيات 1 : 496 ، وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 ، والاحاطة 183 - 1 ، ازهار الرياض 3 : 21 ، كشف الظنون 1 : 493 ، 2 : 1644 ، هدية العارفين 1 : 805 . وفي الخزنة العامة نسخة منه .

13 - الجامع في التاريخ ، يقول القاضي عياض في ترجمة عبد الله بن ياسين القائم

بدعوة المرابطين : « وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ » ، وذكر تلميذ عياض محمد بن حمادة البرنسي السبتي ، وعنه الذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 بعنوان « جامع التاريخ » ، والمقرئ في ازهار الرياض 2 : 239 خ : انه تاريخ المرابطين ، انتهى

فيه الى سنة 540 هـ ، وانه كتاب أربى على جميع المؤلفات ، فيه اخبار الملوك بالاندلس ، والمغرب ، منذ دخول الاسلام اليهما ، واستوعب أخبار سبعة وقطانها وفقهاءها ، وجميع ما جرى من الامور فيها ، واستوفى أخبار الدولة الحنية ، وذكره في كشف الظنون 1 : 538 تحت عنوان « جامع التاريخ » ، وهدية العارفين 1 : 805 ولم يضيفا شيئا زائدا على هذا العنوان ، وانظر :

العيون الستة ، والقنوان الستة .

14 - كتاب « خطبه » ، في سفر . ذكره ابنه في التعريف 133 ، وذكروا في ترجمة القاضي أنه كان لا يخطب الا من انشائه .

15 - سر السراة ، في آداب القضاة . قال ابنه (للتعريف 134) : رأيت أيضا هذه الترجمة بخطه ، ولم اجد من هذا الكتاب شيئا ، ولا وقفت له على خبر . وذكره في الاحاطة 183 - 1 ، وأزهار الرياض 2 : 238 خ وقال : ومما تركه في للمبيضة سر السراة الخ . وهو كلام لامعنى له بعد قول ابنه السابق

16 - كتاب سؤالات وترسيل .

انظر : غنية الطالب

17 - السيف المسلول ، على من سب أصحاب الرسول . خ

ذكره كشف الظنون 2 : 1018 ، وهدية العارفين 1 : 805 .

18 - الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وسماء الذهبى : الشفا في شرف المصطفى ، وهو أشهر من ان يعرف . أقرأه القاضي في حياته واجاز به .

ذكره ابنه 132 ، وعن الاحاطة 183 - 1 ، وقدره بسة اجزاء ، وأزهار الرياض 2 : 238 خ ، وتذكرة الحفاظ 4 : 97 ، كشف الظنون 2 : 1052 - 1055 ، هدية العارفين . 1 : 805 .

19 - الصفا بتحرير الشفا للقاضى سبق ، هذا ص كشف الظنون 2 : 1079 ،

وهي عبارة موهمة فهم اسماعيل باشا البغدادي منها أن « الصفا بتحرير الشفا »
اسم كتاب لعياض ، فذكره له في ترجمته 1 : 805 .

وهو فهم خاطيء ، والصفا بتحرير الشفا من تأليف قطب الدين محمد بن محمد
ابن الخبزي التوفى سنة 834 هـ . كما في كشف الظنون عند الحديث عن
شروح الشفا .

20 — العيون الستة في اخبار ستة ، هكذا ذكره كشف الظنون 2 : 1186 ،
وهديّة العارفين 1 : 805 ، وتاريخ الفكر الاندلسي 283 . وانظر:

الظنون الستة

21 — غريب الشهاب . ذكره كشف الظنون 2 : 1027 ، وهديّة العارفين 1 : 805 .

22 — الغنية في أسماء شيوخه . ذكرها ورواها عنه ابن خير في فهرست ما
رواه ابن شيوخه ، 43 ، 512 ، الاحاطة 183 — 1 ، التعريف 133 ، كشف الظنون
2 : 1213 ، هديّة العارفين 1 : 805 .

23 — غنية الكتاب ، وبغية الطالب في الصدور والترسيل . هكذا اورده ابنه في
التعريف 133 ، والمقرى في ازهارالرياض 2 : 230 خ ، وبقية المصادر مختلفة في ايراد هذا
لاسم ، ففي الكشف : « في صدور الرسائل » ، وفي الاحاطة : « ... في الصدور
او الرسائل » ، وقال ابن خاتمة : كتاب في سؤالات وترسيل له ، في نحو اربعة
سفار . قال المقرى : وانظر هذا الذى قاله ابن خاتمة هل هو غنية الطالب المذكور
او غيره .

24 . كتاب العقيدة . ذكره الذهبي في تذكرة الحفاظ 4 : 97 ، وهديّة العارفين 1 : 805 .
وفي فهرس دار الكتب المصرية القديم 7 : 295 : « شرح بالقول لبعض الفضلاء على
عقيدة الامام الاجل القاضي عياض » .
وانظر هذه العقيدة هي كتاب الاعلام بحدود قواعد الاسلام الذى مر ذكره .

25 - الفنون الستة في اخبار سبته . هكذا سماه في الاحاطة 183 - 1 ، وابنه في التعريف

133 ، والمقرى في ازهار الرياض 2 : 239 خ، وهو مما لم يكمله من تأليفه ، وعبارة الاحاطة : مما تركه في المبيضة ، وانظر :

العيون الستة ، والجامع في التاريخ .

26 - القواعد ، هكذا - مجردا عن الاضافة - ذكرها في هدية العارفين ، ولم يذكر

غيره .

وهو ، فيما ارجح : كتاب « الاعلام بحدود قواعد الاسلام » .

27 - مسألة الاهل المشترط بينهم التزاور ، من الكتب التي تركها القاضي في المبيضة،

وذكره ابنه في التعريف 133 ، والمقرى في ازهار الرياض 2 : 239 خ .

28 - مشارق الانوار ، على صحاح الانار ، وهو من اقوم ما خلف القاضي عياض رحمه الله،

درس فيه الموطأ ، وصحيح البخاري ، وصحيح مسلم : عمد الى كلمات المتن واسماء الاماكن ، والرجال وكناهم والقباهم ، فرتب كل ذلك على حروف المعجم ، ثم شرع في عمله ، فضبط متونها وصححها على الاصول ، ونبه على رواياتها المختلفة ، و اشار الى الصواب او الارجح منها، اعتمادا على المقارنة بين الروايات ، ومتون اللغة ، واستفادة من دراسات السلف التي سبقته ، واعتمادا ، بعد هذا كله ، على استقصائه وكثرة بحثه .

ثم افرد فصلا لاسماء الامكنة فضبطها ، وكذلك فعل في الاسماء والالقاب والكنى والانساب الواردة في اسانيد هذه الكتب الثلاثة المذكورة ، وعاد فعرض الى ما وقع في كل فصل من هذه الفصول من تصحيف وتحريف يقومه وينبه على الصواب فيه ، وختم هذا العمل المعجز بشرح وجيز لغريب كلمات الكتب الثلاثة .

وقد ترك هذا الكتاب في مبيضته ، ووصف خط القاضي فيه بانه غاية في الشيج ، (والنبيج التعمية في الخط) والادماج والاشكال واهمال الحروف ، و جاء الحافظ المحدث ابو عبد الله محمد بن سعيد الغرناطي المعروف بالطرار ، فجمع اصولا وامهات حافلة من كتب الغرب واللفة ، واستعان بها على اخراج نص هذا الكتاب من مسودته .

وذكره ابنه في التعريف 133 ، وعنه الاحاطة 183 — ا ، والمقرى في ازهار الرياض 2 : 239 خ
وقدروه ستة اجزاء ضخمة . وابن خلكان 1 : 496 ، وكشف الظنون 2 : 1687 ، وهديّة
العارفين 1 : 805 . وقد طبعه السلطان المولى عبد الحفيظ بفاس سنة 1328 هـ .

29 — مطامح الافهام في شرح الاحكام . ذكره في كشف الظنون 2 : 1718 ، وهديّة العارفين
1 : 805 .

30 — المعجم في ذكر ابى على الصدفى واخباره وشيوخه واخبارهم ، وهو يتضمن نحو
المائتى شيخ . ذكره القاضى عياض نفسه في الغنية 123 ، وابنه في التعريف 133 ، والاحاطة
183 — ا .

31 — المقاصد الحسان فيما يلزم الانسان . من الكتب التى لم يكملها ، قال ابن خاتمة : انه
في سفرين . ذكره ابنه 133 ، الاحاطة 183 — ا ، ازهار الرياض 2 : 238 خ ، وقد تركه فى
المبيضة ايضا ، وهو فى جزء .

32 — نظم البرهان على صحة جزم الاذان . ذكره ابنه 133 ، الاحاطة 183 — ا ، ازهار
الرياض 2 : 239 خ ، كشف الظنون 1 : 1961 ، هديّة العارفين 1 : 805 .

أما ترتيب المدارك ، وتقريب المسالك ، لمعرفة أعلام مذهب مالك ،
فقد قدره ابنه ، وعنه ابن الخطيب ، والمقري ، بخمسة أسفار .

وهناك ظواهر يلحظها القاري لنسخ هذا الكتاب الخطية ، تلح في إيجاد
تفسير لها ، يمكن اجمالها فيما يلي :

1 — اختلاف النسخ في عدد أجزاء الكتاب ، ونفى الاجزاء التي
نظن أن المؤلف جزء إليها كتابه ، وهي أجزاء يدل الوجود منها على أنه كان
يتبدى كل جزء منها بالسبلة والتصلة ، وينتهي بالتنصيص على نهاية الجزء .

ولم تلتزم النسخ التي بيدنا — بصورة دائمة — النص على بداية كل
جزء ونهايته على الصورة التي ذكرناها ، بل تركته أكثر مما عُنيت بذكره .
2 — كثرة الفروق بين النسخ في الكلمات والجمل بافت حداث يدعو
إلى البحث عن الوجه فيه ؛ بل وصل الامر فيها في بعض الاحيان إلى أن
كانت لكل نسخة روايتها التي لا تشارك فيها غيرها من النسخ .

3 — الاختلاف بين النسخ في ترتيب التراجم ، تقديم وتأخيراً .

4 — تكرار التراجم ، بحيث ترد ترجمة الشخص الواحد في مكانين .

وهي مظاهر لا بد أن يكون وراءها ما أنتجها .

وقد اتفقت المصادر المعتمدة بها في ترجمة عياض — على أنه لم يُسمع
كتاب « ترتيب المدارك » في حياته لاحد من الناس ، وهي إشارة
فيها — فيما نظن — التفسير لهذه الاختلافات ؛ فهي على كل حال تعنى

أن الكتاب لم يقرأه الناس على مؤلفه فتحدّد عند قراءته — بصورة علنية ونهائية — أجزاءه ، وتتحد — بشكل جماعي — النسخ المسموعة منه على متن واحد ، وعلى ترتيب واحد ، وتحذف منه التراجم المتكررة . لم يسمع الكتاب ، بل ظل في مسودة المؤلف ، ⁽⁷⁸⁾ إلى أن تداولته أيادي النساخ ، فأخرجوه من المسودة باجتهادهم .

ووصف خط عياض عند الحديث على مسودة « مشارق الانوار » من تأليفه ، فقليل : إنه « في أنهى درجات التثبيج ⁽⁷⁹⁾ والإدماج والإشكال وإهمال الحروف ⁽⁸⁰⁾ » .

وهي صفات وسعت المجال للاجتهاد ، فولدت المظاهر التي سبق الحديث عنها . ومهما كان الامر فقد حدث الاختلاف ، وكان له أثره في عملنا في نشر الكتاب ؛ فقد أرغمنا ، إزاء ذلك ، أن نستكثر من النسخ بغية الوصول — أو المقاربة — إلى درجة الاطمئنان .

وكان علينا أن نختار من الفروق ما تتحقق دلالاته على معنى صحيح ، غير أننا آثارنا أن نضع بين يدي القاري كل ، أو جل ، الفروق ليكون له أن يختار ، إذا وجب عليه أن يختار ، ولم نجتهد إلا في اختيار النص الذي أثبتناه ، فهو — حسب اجتهادنا — النص المرجح ، وما وضع من

(78) كانت هذه المسودة التي بخط المؤلف عند النبامي ، وقد اشار اليها مرات في « المرقبة العليا »

(79) التثبيج : التعمية وعدم البيان في الخط .

(80) الديباج 292 .

الروايات في أسفل المتن بين الفروق نصٌ مرجوح ، في أغلب الاحيان .

وقد اعتمدنا في تقويم هذا الجزء على النسخ التالية :

أ — نسخة تحتفظ بها الخزانة الملكية ، وهي نسخة جيدة .

وقد التزمنا ترقيم صفحاتها ، فالأرقام المحصورة بين قوسين عن يسار المتن .
أو يمينه ، تشير إلى صفحات هذه المخطوطة ، وكذلك أرقام فهرس الموضوعات .

ب — نسخة محفوظة بالخزانة العامة تحت رقم D - 2634 .

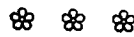
ت — نسخة خاصة بمكتبتنا .

خ — نسخة خاصة بمكتبتنا أيضا .

ط — نسخة محفوظة بالخزانة العامة أيضا تحت رقم D - 2635 .

ك — نسخة محفوظة بالخزانة العامة تحت رقم D - 2633 .

وقد أغنانا القاضي عياض — بما بينه في مقدمة ترتيب المدارك ،
عن الحديث عن منهجه في التأليف ، وتمثله للأصول العلمية المقررة في
عهدہ وتطبيقها ، واستيفاء المراجع ونقدها — عن تكرار الحديث في ذلك ؛
فهو أفصح منا لساناً في التعبير عن عمله .



وبعد

فلاًء بی الفضل عياض ، ولكتبه مكانة خاصة في نفوس الأسرة
العلوية المالكة منذ القديم ؛ فالمغفور له السلطان مولاي محمد بن عبد الله كان

شديد العناية بكتب عياض ، يقرأها ويطلع على خفاياها ، وينقد ما لا يروقه منها ؛ لقد أمر جمعا من العلماء أن يشرحوا مشارق الانوار للصاغاني فشرح الشيخ التاودي ابن سودة الثلث الاول منه ، وكان على الشيخ عبد القادر بوخريص - حسب الامر السلطاني - أن يشرح الثلث الثاني ، فكان السلطان مولاي محمد بن عبد الله يدل الشيخ على المراجع والمآخذ ، وكان من بينها شرح عياض على صحيح مسلم ⁽⁸¹⁾ .

وعنى بقراءة كتاب الشفا ، ولم تعجبه التفاصيل واستقصاء الجزئيات في قسم « حكم من سب رسول الله ﷺ » ، فانتقد عياضا ، وبعث بانتقاداته إلى علماء مصر يسألهم رأيهم ، فأجابه من علماء الازهر الشيخ الامير والشيخ عبد المعطى الحريري ، يؤيدان وجهة نظره .

والسلطان مولاي عبد العزيز - قدس الله روحه - أنشأ قراءة الشفا للقاضي عياض في الضريح الإدريسي بفاس عند شروق كل يوم ، وعين لذلك جماعة من جلة العلماء ، وخصص لكل واحد منهم راتبا يوميا لقاء القيام بعمله ⁽⁸²⁾ .

وعناية السلطان مولاي عبد الحفيظ - أسكنه الله دار رضوانه - بعياض معروفة ؛ فقد طبع على نفقته كتابه «مشارق الانوار» ، وعزم على طبع «ترتيب المدارك» بمصر ، فعهد إلى وكيل الدولة المغربية بها إذ ذاك ، الحاج محمد بن العباس ابن شقرون أن يطبعه ضمن المجموعة القيمة

(82) الدرر الفاخرة III .

(81) الدرر الفاخرة 55 . 59 .

من الكتب التي طبعها جلالاته على نفقته ، هناك وبالمغرب، وأرسل له النسخ
الخطية ليشروع في العمل ، غير أن مانعاً من الموانع حال دون ذلك .
وفي سنة 1330 هـ بدأ مولاي عبد الحفيظ بطبع ترتيب المدارك بفاس
على نفقته أيضا ، فطبع منه ست عشرة صحيفة ، ثم حال حائل دون
الاستمرار في الطبع .

وفي أيام الاحتفال بالذكرى الالفية لجامعة القرويين ، حدثني بعض المقرين
إلى حضرة صاحب الجلالة الملك الخالد الذكر ، مولانا محمد الخامس - أنزله الله
مقعد الصّدق عنده - أن جلالاته قد عزم على طبع « ترتيب المدارك » ، وأنه
أمر بجمع نُسخه لهذا الغرض ، غير أن هذه الامنية الغالية لم يكتب لها
حينذاك أن تتحقق .

وهكذا ظلت العناية بترتيب المدارك عهدا يتوارثه ملوك هذه الاسرة العلوية
الكريمة الامجاد لاحقاً عن سابق ، حرصاً منهم جميعاً على إحياء مجد هذه
الامة ، والحفاظ على مقدّساتها .

وأثبت الاقدار الالهية - حين حالت مراراً دون أن تتحقق رغباتهم
الكريمة ، وحين اختارت لتفقيدها وتحقيقها حضرة صاحب الجلالة مولانا أمير
المؤمنين الحسن الثاني ، نصره الله - إلا أن تقرّن هذه المأثرة العلمية الخالدة
بمهده ، وتكتب هذه احسنه المقبولة في صحفه .

فقد أمر جلالة الملك - حياه الله وأيده - بطبع ترتيب المدارك ،

وتكرم بالإذن في الاستفادة من نسخة منه تحتفظ بها الخزنة الملكية، وواصل
جلالته اهتمامه بانجاز العمل فيه منذ بدايته إلى نهايته .

ففي نور هديه الرشيد سار العمل ، وإلى جلالته - بدءاً وختاماً - يعود
الفضل في إخراج هذا الجزء من « ترتيب المدارك » .

ووزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية يسعدها أن ترفع لجلالة العاهل
العظيم الجوهرة الثانية من كنوز القاضى عياض ، وهي بمناسبة ذلك ترجو
أن يسدد الله - جلّت قدرته - خطاه ويرعاه ، حتى يصل بأتمته إلى المكان
الذى يليق بها وبأمجادها ، وأن يقر عينه الكريمة بولى عهده ويحفظه فيه ،
فهو - جل جلاله - ولى الاجابة المتفضل بها .

وقسم التأليف والترجمة والنشر بهذه الوزارة يرى لزاما عليه أن
يسجل لمعالى السيد الوزير الحاج أحمد بركاش شكره الجزيل إزاء ما يلقاه
من معاليه من تشجيع واهتمام دائمين ؛ فאלله الكريم يجزيه على عمله
أحسن الجزاء .

أما أنا فقد بذلت ، وحسبى أننى بذلت ، ما في وسعى فإن أصبت
فبتوفيق ربى ، وإن كانت الاخرى فلى أجر ما اجتهدت . والله يهدينى
للتى هى أقوم .

الرباط 17 شوال عام 1384 هـ
موافق 19 فبراير سنة 1965 م

محمد بن وهب الطنجي

وهذه لائحة بمراجع ترجمة القاضي عياض ، أثبتنا هنا لعلمنا أن تفيد من يريد

التوسع في تاريخه .

فقد أفردته بالتأليف :

I - ابنه أبو عبد الله محمد بن عياض ، (I) قاضي دانية المتوفي سنة 575 .
فعرّف به ، وجمع أخباره ، وذكر شيئا من أشعاره ، واحصى تأليفه وذكر شيوخه
- في مجلدة متوسطة الحجم .
وأكثر من ترجموا للقاضي بعد ابنه كان هذا الكتاب عمدتهم ، وقد أشرنا إليه
في الحواشي باسم « التعريف » . واعتمدنا على النسخة المحفوظة بالخزانة العامة تحت
رقم (553 . ك) .

2 - وأبو العباس المقرئ : أحمد بن محمد المتوفي سنة 1041 هـ في كتابه :
« أزهار الرياض » ، والأخبار التي تخص القاضي عياضا فيما طبع من أزهار الرياض -
في الجزء الأول صحيفة 23 - 29 ، والثالث صحيفة 16 - 21 ، 59 - 64 ، 95 - 101 ،
149 - 167 ، 282 .

وترجم له من المغاربة :

- 3 - الضبي أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة القرطبي ، في بغية الملتبس ،
في تاريخ رجال أهل الأندلس (مدريد 1882 - 1883 م) ، رقم 1296 .
- 4 - ابن الأبار ، محمد بن عبد الله بن أبي بكر البلسنسي ، في المعجم
في أصحاب أبي علي الصديقي (مدريد 1885 م) ، رقم 279 .
- 5 - الفتح بن خاقان ، في قلائد العقيان 222 (بولاق 1283 هـ) .
- 6 - ابن بشكوال أبو القاسم بن خلف بن عبد الملك القرطبي ، في
« الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم » (مدريد 1883
- 1892 م) رقم 972 .
- 7 - ابن سعد التلمساني محمد بن أحمد ، في « النجم الثاقب » ، فيما لأولياء الله
من مفاخر المناقب » ، واعتمدنا على نسخة الخزانة العامة (رقم 1992 ، ك) .

(I) جاء في المرقبة العليا للنباهي ص 101 ، وعنه المقرئ في أزهار الرياض
17/3 - « ... ذكر ذلك حفيده في الجزء الذي صنفه في التعريف به وبتأليفه » .
فنسب هذا التعريف لحفيد القاضي وكأنه تصحيف ، ولم يتنبه له المقرئ عند نقله .

- 8 - النباهي على بن عبد الله بن محمد الجذامي ، في « المرقبة العليا » ، فيمن يستحق القضاء والفتيا ، (القاهرة 1948 م) ص 101 .
- 9 - ابن القاضي احمد بن محمد بن أبي العافية ، في « جذوة الاقتباس » ، فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس ، (فاس 1309 هـ) ص 277 .
- 10 - ابن الخطيب محمد بن عبد الله بن محمد ، في « الاحاطة في اخبار غرناطة » ، (مصورة الخزنة العامة رقم 1707 - D) لوح 180 ب - 183 ب .
- 11 - الكتاني محمد بن جعفر بن ادريس المتوفي سنة 1345 هـ في « سلوة الانناس ومحادثه الاكياس » ، (فاس 1316 هـ) 151/1 .
- 12 - الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير المتوفي سنة 1382 هـ ، في « فهرس الفهارس » ، (فاس 1346 هـ) 183/2 .
- 13 - الافراني محمد الصغير ، في « درر الحجال » ، في سبعة رجال ،
- 14 - الناصري ، احمد بن خالد ، في « الاستقصا لخبار دول المغرب الاقصى » ، 141/1 ، 145 .
- 15 - محمد بن محمد مخلوف التونسي ، في « شجرة النور الزكية » ، (القاهرة 1349 هـ) ص 140 - 141 .
- 16 - العباس بن ابراهيم المراكشي ، في « اظهار الكمال في تنعيم مناقب اولياء مراكش سبعة رجال » ، 81/1 - 118 .

ومن المشاركة :

- 17 - ابن خلكان احمد بن محمد بن ابراهيم ، في « وفيات الاعيان » ، وانباء ابناء الزمان ، مما ثبت بالنقل او السماع واثبتته العيان » ، (بولاق 1275 هـ) ، 496/1 .
- 18 - الذهبي محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، في « تذكرة الحفاظ » ، (حيدرآباد 1333 - 1334 هـ) 96/4 - 99 .
- 19 - الذهبي محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز ، في « دول الاسلام » ، (حيد رآباد 1364 هـ) 44/2 .
- 20 - ابن كثير اسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي . في « البداية والنهاية » ، 225/12 .
- 21 - أبو الفداء اسماعيل صاحب حماة ، في « الخبر عن البشر » ، (استانبول 1286 هـ) 23/3 .

- 22 - ابن فرحون ابراهيم علي بن محمد اليميري المدني ، في « الديباج المذهب » (القاهرة 1351 هـ) ص 168 .
- 23 - طاش كبري زاده ، احمد بن مصطفى المتوفي سنة 962 هـ في « مفتاح السعادة » 19/2 .
- 24 - ابن العماد الحنبلي عبد الحي بن احمد بن محمد ابو الفلاح ، في « شذرات الذهب » ، في اخبار من ذهب » (القاهرة 1950 هـ) 138/4 - 139 .
- 25 - الخوانساري الميرزا محمد باقر الموسوي ، في « روضات الجنات » في احوال العلماء والسادات » ، (طهران 1367 هـ) ص 484 .
- 26 - مرتضى الزبيدي ، في « تاج العروس » (حسب) .
- 27 - علي القاري ، علي بن سلطان العروي المتوفي سنة 1014 هـ في مقدمة شرح الشفا 2/1 (استانبول 1316 هـ) .
- 28 - يوسف اليان سركيس ، في « معجم المطبوعات العربية والمعربة » ، 1397/2 ، وصحف في تاريخ ميلاده فجعله 496 هـ وصوابه 476 هـ .
- 30 - دائرة المعارف الاسلامية (مادة عياض)
- 31 - اسماعيل باشا البغدادي في « هدية العارفين » ، واخطا في نسبة بعض الكتب اليه ، وقد اشرنا الى الصواب فيها عندما ذكرنا مؤلفات القاضي .